## الفصل الخامس

## الهجرات العربية قبل الإسلام

ذكر المسعودي أن أحمد بن طولون سمع بأن أحد المسنين من أقباط صعيد مصر كان عالما بتاريخ الأمم السابقة، وأنه كان قد بلغ ثلاثين ومائة سنة من العمر . وكان كثير الأسفار في البلاد ، عالما بأخبارها . فاستقدمه ابن طولون سنة نيف وستين ومائتين، وأخذ يسأله عن أخبار البلاد . وكان من بين ما سئل عنه ، بلاد النوبة وأرضها فقال : " هم أصحاب إبل وبُخْت ، وبقر وغنم ، وملكهم يعد الخيل العتاق ، والأغلب من ركوب عوامهم البراذين ، ورميهم بالنبل عن قسي عربية ، وعنهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن من العرب ، وهم الذين يسميهم العرب رماة الحدق ، ولهم النخل والكرم والذرة والموز والحنطة ، وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن . وللنوبة أترج كأكبر ما يكون بأرض الإسلام ، وملوكهم تزعم أنهم من حمير . " (١)

وما يعنينا في هذا الحديث هو الزعم التاريخي بأن ملوك بلاد النوبة هم من أصل حميري من جنوب اليمن . ويبدو أن هذا الزعم وجد طريقه إلى الرواة إذ ذكر المقريزي في خططه :

" اعلم أن النوبة والمقرة جنسان بلسانين ، كلاهما على النيل ، فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام ، وبين أول بلدهم وبين أسوان خمسة أميال ، ويقال إن ( سلها ) جد النوبة ، ومقرى جد المقرة من

اليمن .وقيل إن النوبة ومقرى من حمير . وأكثر أهل الأنساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح . " [٢]

ويقال[١] ان الملك الحميري أبرهة ذا المنار ( ١٣٤ق.م ) ذكر بأنه غزا بلاد السودان ، وأنه توغل فيه حتى وصل إلى المغرب .

هذه روايات ثلاث تزعم أن هناك علاقات وطيدة نشأت تاريخيا بين ملوك حمير في بلاد اليمن وبين ممالك السودان منذ أقدم العصور . ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن بلاد اليمن كانت في كل الأزمنة التاريخية في الجزيرة العربية هي الموقع الذي تتفجر منه الهجرات إلى أنحاء الجزيرة العربية الأخرى ، كما أن الأمم التي سكنت هناك لم تكتف بالهجرة إلى البلاد العربية التي امتلأت بقبائلها ، بل عبرت البحر الأحمر من باب المندب وهبطت في إرتيريا وبعض أجزاء الحبشة .

وقد دلت الاكتشافات الأثرية الحديثة في الحبشة إلى أن هذه البلاد لم تكن فقط أرض هجرات عربية ضخمة ، بل كانت أيضا أرضا طيبة لاستقبال حضارة جنوب الجزيرة وثقافته ومدنيته .

وقد اختلف المؤرخون كما رأينا في موطن العرب الأصلي ، فمنهم من يرى أنهم من سكان البحر الأبيض المتوسط ، وأنهم نزحوا من هناك حتى استقر بهم المقام في الجزيرة العربية ، ومنهم من رأى أن مقرهم الأصلي في بلاد ما بين النهرين ثم هاجروا من هناك حتى وصلوا إلى جنوب الجزيرة العربية ، وطاب لهم المقام هناك وأنشأوا عدة ممالك تعاقبت على الجنوب العربي ، هي المعينيون والسبئيون فالحميريون . وكان سكان هذه المواطن

---

[١] يوسف فضل حسن : العرب والسودان ( بالانجليزية ) .

يشتغلون بالتجارة والزراعة والملاحة . وعرف السبئيون بأنهم من أكثر العرب نشاطا في هذه الأمور ، ومن ثم فقد جابوا البحار والبلاد عابرين المياه أنى واجهتهم ، مقيمين في العالم القديم كثيرا من المراكز التجارية التي كانت ترسو فيها مراكبهم المحملة بالكثير من البضائع .

ولئن تحدثنا عن هجرات عرب الجزيرة إلى الأراضي الحبشية فإننا إنما نفعل ذلك بغرض الوصول إلى الخطوة التي تلت تلك الخطوة ، ونعني بذلك عندما أخذ العرب ينزحون من إرتريا والحبشة ( اثيوبيا ) وينحدرون منها إلى سهول السودان متتبعين مجاري الأنهار التي تصب في السودان وخاصة نهر أتبرة وخور بركة والقاش كما فعلت بطون من هوازن بعد الإسلام .

ولابد لنا من وقفة قصيرة مع المزاعم التاريخية التي التقينا بها في معرض هذا الحديث والتي جاءت على لسان كل من المسعودي والمقريزي اللذين ذكرا بأن مملكتي النوبة وسوبة من أصل عربي الا أن المقريزي يستبعد ذلك على أساس أنهم من أصل حامي .

بيد أنه في السنوات الأخيرة عثر على المخطوطة الأثيوبية " قدلي أفتسى " التي تشير إلى نزوح قبائل عربية من جنوب اليمن واستقرارها في إثيوبيا . وقد حوت هذه المخطوطة نصا باللغة " الجعزية " (١) عن وصول بعض القبائل العربية في سنة٣٥١٧ من بدء الخليقة ( أي في سنة ١٩٩٠ ق. م ) إلى الحبشة بعد أن ازدحمت أراضي اليمن بالسكان ، واضطر بعضهم إلى الهجرة إلى الحبشة . وقد استقدم هؤلاء المهاجرون البنائين والفنيين من بابل لبناء المساكن الضخمة ، كما أنهم حفروا مخابئ تحت الأرض أشبه ما تكون بالصناديق لإخفاء مجوهراتهم وحليهم فيها . ثم إن هؤلاء الناس بنوا قصرا عظيما استغرق بناؤه خمسة عشر عاما ، وسكن فيه اثنان من ملوكهما هما "

سوبة ونوبة " ، وحكما [1] حوالي ٣٦٢سنة ، ثم اشتعلت الحرب في آسيا (٢) فرحلا إلى وطنهما هناك لمحاربة أعدائه . فلما رحلا إلى هناك انتهزت القبائل الكوشية الفرصة وثارت على حكمهما وهدمت المباني لمحو آثار الأمة السامية من الوجود . وما لبث أن عاد سوبة ونوبة إلى قاعدتهما في الحبشة حيث أصبح نوبة ملكا على أمهرا ، وصار سوبة ملكا على شمال إثيوبيا ، وما زال الناس الذين يعيشون في مدينة " بيحا " يعتقدون بأنها المدينة التي بناها نوبة وسوبة .

وتظهر هذه المخطوطة أن أصل ما قيل عن ممالك النوبة في السودان يحمل من الحقائق التاريخية أكثر مما يحمل من مزاعم ، كما يصعب على الدارس أن يعتقد بأن اسمي نوبة وسوبة اللذين وردا في هذه المخطوطة الإثيوبية إنما كانا مجرد مصادفة ، وأنهما ليست لهما علاقة تاريخية بممالك السودان القديمة التي عرفت بهذين الاسمين واللتين ذكرهما المسعودي والمقريزي .

إن في هذه المخطوطة ما يجعلنا نميل إلى تصديق هذه الرواية التي تجعل أصول ملوك مملكة النوبة في دنقلا ومملكة سوبا الواقعة جنوبي الخرطوم هي من نسل القبائل العربية التي نزحت إلى إرتريا فأثيوبيا ثم توغلت فيها حتى وصلت إلى أواسط السودان ، وسنجد في معرض دراستنا توغلا مماثلا لبعض هذه القبائل العربية التي دخلت السودان بنفس هذا الطريق ومن بين أشهر هذه القبائل قبيلة الحلنقا وذلك في عصر متأخر من ذلك العصر .

---

[1] اللغة الجعزية لغة سامية من جنوبي الجزيرة العربية انتشرت في الحبشة عندما هاجر اليها شعبا الجعز والحبش من الجنوب العربي .

٢- سيرجيو هابل سيلاسي . تاريخ اثيوبيا القديم والوسيط ص (٣٤) .

كان العرب الذين يتاجرون مع إثيوبيا قادمين من اليمن وجنوبي الجزيرة العربية يتوغلون في الأراضي الإثيوبية طلبا للتجارة ، وكان بفضل اشتغالهم بها أن عرفوا الكثير عن أراضي الحبشة ، وقد ظهرت هذه المعرفة بجلاء حينما هاجر المسلمون الأوائل إلى أرض الحبشة وقد لاذوا بها من شر قريش . ولو لم تكن الحبشة[٤] معروفة لدى المسلمين بدروبها ومعابرها وحكامها وسكانها لما أتخذ المسلمون تلك الخطوة الجريئة التي اتخذوها .

لقد كانت التجارة العربية حافزا مهما للعرب للسفر بعيدا عن أوطانهم وخاصة في العصر السبئي الذي كانت سفنه تسير شمالا حتى فلسطين ، وشرقا حتى الشواطئ الصومالية ، وربما أبعد من ذلك لتصل إلى الهند والصين . أما على اليابسة في إفريقيا فان التجارة معها أخذتهم حتى أوصلتهم إلى أراضي الحبشة الداخلية ، ومن هناك سلكوا طريقهم داخل الأراضي الخصبة السودانية ، جنوبي نهر أتبرة أو ربما أبعد من ذلك نحو الغرب حيث قطنوا هناك واختلطوا بالسكان الأصليين حتى أصبحوا جزءا منهم[٥] . وكان ذلك قبل ظهور الإسلام .

[٦]وعرفت لفظة " نوبي " في التاريخ اليوناني أول ما عرفت فيما نقله سترابو عن اراتو شينيس ( ٢٧٦ – ١٩٦ ق.م ) [٦] خلال الفترة التي قامت فيها

---

[٤]كان اسم الحبشة الاسم الغالب على سكان الضفة الغربية من حوض البحر الأحمر بالقرب من باب المندب وما حوله ، ولا يعني اسم الحبشة أنها هي التي كانت تسيطر وتحكم كل شواطىء البحر الأحمر الغربية .

١

٥

[٢](٥) ولاس بدج – السودان المصري – الجزء ٢ – ص ٤١٦ .

[٦]الاسلام فى السودان : ترمنجهام . ص ٤٣

مملكة مروي بالسودان بين عام ٣٠٠ ق.م – ٣٥٠ ق.م . وقد كان النوبيون شعبا مختلفا عن الليبيين والإثيوبيين [٧] ولو أنهم كانوا يسكنون معهم جنبا إلى جنب ، وقد وصفهم سترابو ( سنة ٦٦ ق.م – ٢٤ ق.م ) بأنهم شعب عظيم ، وأنهم كانوا مستقلين عن الإثيوبيين غير خاضعين لهم.

ونجد مزيدا من الوصف لهؤلاء النوبة في الكتابات الحبشية التي وصلت إلينا ، خاصة تلك التي سجلها الملك الحبشي عزانا في سنة ٣٥٠ ق.م عندما غزا الأراضي السودانية وتغلب على المرويين والبجة والكوشيين وغيرهم من الأمم التي كانت تعيش في السهول الواقعة بين الحدود الحبشية ونهر النيل . ويذكر عزانا أنه قتل مئات من الرجال ، وأسر بضعة آلاف من النساء والأطفال ، واستولى على آلاف الأبقار والضأن ، وأنه تعقب هؤلاء الأعداء الذين فروا أمامه بعد أن كانوا يهاجمون القبائل الآمنة في مملكته ، والقوافل التجارية . ومازال يقتفي آثار هذه الأمم حتى وصل إلى حدود النوبة الحمر . ولم يذكر شيئا بعد ذلك عن أي نزاع قام بينه وبين هؤلاء النوبة الحمر .

وهذا الوصف يجعل المرء يتوقف قليلا لكي يتساءل عما إذا كان هؤلاء النوبة الحمر يختلفون في لون بشرتهم عن القبائل الأخرى التي هزمها عزانا ، وعما إذا كانوا بالفعل من بقايا القبائل العربية التي نزحت مع الملك العربي نوبة وحكمت بواسطته ، ثم اضطرت إلى النزوح نحو السودان بعد ثورة القبائل الكوشية في الحبشة . إن هذه من المسائل التاريخية التي تستحق مزيدا من الاستقصاء والبحث .

---

[٧] في الكتابات اليونانية القديمة أن كلمة اثيوبى ( الوجه المحروق ) تعنى السودانيين القدماء والاحباش معا. وكانت أثيوبيا السودانية معروفة لدى الكتاب اليونانيين القدماء

ويضيف عزانا بأنه وجد لهؤلاء المرويين وبقية سكان إقليم السودان منازل من الحجر والقش ومزارع للذرة والقطن وآلات من البرونز والمعادن مما يدل على أن النوبة كانوا ومن معهم متقدمين حضاريا عن كثير من الأمم في ذلك التاريخ .[1]

وهكذا نرى أن الحبشة كانت معبرا للقبائل العربية النازحة إليها ، ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن في بعض فترات التاريخ كان بعض ملوك الحبشة قد استولوا على بعض أجزاء من الجزيرة العربية وخاصة الملك عزانا الذي كون إمبراطورية أو ( كونفدريشن ) من عدة أمم ، إذ أنه ، حسب ما جاء في المسلة التي خط فيها انتصاراته ، كان ملكا على اكسوم ، وحمير ، وريدان ، وسبأ ، وسالهن ، وسيامو ، والبجة ، والكاسة ، (كما كتبها ) ، وأنه ملك الملوك . ولا شك في أن إمبراطورية كهذه لابد وأن تكون القوافل التجارية فيها ونزوح السكان من بلد إلى آخر واستيطانهم من الأمور التي تسهل عليهم بحكم الوحدة التي بينها .

ولعل أهم ما تركه العرب في إقليم البجة الجنوبي الواقع بين سواكن ومصوع بعد نزوحهم إلى الأراضي الإرترية هو أن هؤلاء العرب الساميين ، بالإضافة إلى الدم العربي ، أدخلوا لغة جديدة في هذا الإقليم الذي يقع جزؤه الشمالي في شرق السودان ، ويكون جزؤه الجنوبي جزءا من إرتريا ، وان تلك اللغة السامية التي أدخلت هي اللغة " التيجرية "[2] والتي مازال يتحدث بها سكان

---

[1] (١) السير ولاس بدج – تاريخ اثيوبيا ج ١ – ص ٢٥٠

[2] (١) اللغة التيجرية كما يقول محمد صالح ضرار يتكون ثلاثة أخماسها من كلمات اصلها عربي والباقي غير عربي . وتتكلم بها الآن قبائل بني عامر والحباب والحماسين في جمهورية السودان وفي ارتريا .

هذه المنطقة من قبائل بني عامر التي تسكن السهول والسواحل على البحر الأحمر وكسلا . ولعل ذلك هو الذي سهل الاتصال بين العرب في جنوبي الجزيرة العربية وهؤلاء المستعمرين في الشواطئ الإفريقية ، ومن هنا كانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ناجحة في أهدافها.

لم يكن طريق باب المندب في جنوبي الجزيرة العربية هو الطريق الوحيد الذي سلكه العرب منذ أقدم العصور ، كما رأينا ، للوصول إلى الأراضي السودانية ، بل كانت هناك طرق أخرى سنستعرض بعضها في هذا الحديث . فالطرق الشمالية عبر سيناء ، سواء أكانت من نواحي سورية أو من شمالي الحجاز لم تكن سوى معابر مطروقة لا توصل إلى مصر فحسب ، بل كانت أيضا تثير حماس العابرين للوصول إلى ما بعد ذلك . ويبدو أن الذهب الذي كان يستخرج من صحراء السودان الشرقية .

كان من السلع المفضلة عند الناس و من أكثرها رواجا . وكان السودان الشمالي الشرقي من أهم مواطن التعدين القديم ، ثم تأتي بعد ذلك السلع الأخرى التي كانت تنقلها إبل قبائل البجة من البحر الأحمر مثل ريش النعام ، إذ مازال النعام يعيش في هذه المنطقة ( محطة سكة حديد براميو بالقرب من سنكات ) رغم كثرة صياديه هذه الأيام . ولربما كان التجار يجدون طلبتهم من عاج وبخور في موانئ البحر الأحمر القديمة مثل سواكن والعقيق ولذلك طرقت أماكنهم قوافل التجارة النبطية والحميرية .

---

راجع كتاب محمد صالح ضرار : قبائل بني عامر ، وكذلك كتابه : قبائل الحباب والحماسين في السودان وارتريا – نشر الدار السودانية للطباعة والنشر . انظر الحديث عن اللغة التيجرية في هذا الكتاب .

ولو تتبعنا تاريخ مصر منذ أقدم عهودها لوجدنا أن الفراعنة كانوا كثيرا ما يتوغلون في أراضي السودان إما كحكام على بعض أقاليمه ، أو لممارسة التجارة والاستيلاء على ما في أراضيه من ذهب وسلع الرفاهية الأخرى مثل العاج وريش النعام والجلود والمواشي والأبنوس . وكان الطريق عبر سيناء مفتوحا للأفراد والجماعات لكي يسلكوه . وقد شوهدت إحدى هذه القوافل التجارية التي يقودها عرب من الجزيرة وهي تنقل التجارة بالجمال بين النيل وصعيد مصر وموانئ البحر الأحمر . [1] (١) [2]

وشهد القرن الميلادي الثاني نشاطا تجاريا على يد النبطيين في نفس المنطقة ، وقد وجدت كتابة نبطية في منطقة عيتباي بشرق السودان بالإضافة إلى بعض النقوش الحميرية . (٢) [3]

فالطريق عبر سيناء هو طريق الغزاة الذين كانوا ينحدرون منه إلى مصر من الأمم السابقة ، كما أن ملوك مروي السودانيين عندما حكموا مصر في القرن الثامن قبل الميلاد عبروا سيناء للوصول إلى فلسطين . فالطريق إذن لم يكن غريبا على أي من الجانبين . غير أنه لا يمكن تحديد أي قبيلة عربية بالذات قد تكون هاجرت في تاريخ ما قبل الميلاد إلى أراضي السودان عن طريق سيناء . ولكن سنجد أن هذا الطريق معبرا سهلا للكثير من القبائل العربية بعد ظهور الإسلام .

---

[1] (١) يوسف فضل – العرب والسودان ص ١٣ – كذلك محمد صالح ضرار – تاريخ السودان – البحر الأحمر ص ١٣ .

[2]

[3] (٢) نفس المصدر .

مثل هذا الاتصال التجاري والحضاري لابد وأن يأخذ أشكالا مختلفة من أنشطة الحياة ، ويجب أ لا ننسى أن السودان بمناطقه الشمالية الشرقية الغنية بالذهب والتي كان يستغل مناجمها الفراعنة للحصول على هذا المعدن بتسخير الأسرى من أهل كوش والبليميين ( البجة ) للعمل في مناجمه قد كان قبلة القصاد من الأمم الخالية .

( ولا يبعد أن تكون سلعة الذهب هي من أهم السلع التي يسعى الناس في العالم القديم " والحديث أيضا " للحصول عليها من وادي العلاقي قبل دخول العرب إليه بعد الإسلام ) .

فمن وادي العلاقي كان الذهب يصدر إلى أنحاء مختلفة من العالم القديم ، كما أن هناك موقعا يماثل وادي العلاقي في شمال غربي المملكة العربية السعودية ، كان غنيا بالذهب الذي استخرج من باطنه تماما كما استخرج من وادي العلاقي .

وقد وجد معدن الذهب والفضة في ذي المروة وما حولها في الجزيرة العربية . وكانت القبائل العربية تعمل في استخراج هذين المعدنين قبل الإسلام وفي صدره [1] ، لذلك فإنها لما علمت بذهب وادي العلاقي في السودان بعد الفتوحات الإسلامية ازدحم العرب على أرض المعدن بجموعهم ، وسكنوا في الوادي ينقبون عن الذهب كما سيجئ في هذا الحديث .

وربما كان من المفيد أن يبحث بعض الباحثين عما إذا كانت هناك علاقة بين طرق التعدين في الذهب في شمال شرقي السودان وشمال غربي الجزيرة العربية رغبة في البحث عن أواصر الصناعة والتجارة بين شاطئي البحر الأحمر .

---

[1] حمد الجاسر – مجلة العرب . ج ١و٢ – رجب – شعبان ١٣٩٦هـ

يحتاج هذا الرأي كما قلت إلى تمحيص يقوم به الصناعيون لمعرفة الوسائل التي كانت تمارس في التعدين في كل من المنجمين ، ومعرفة ما إذا كانت متماثلة فيهما أم أنها تختلف كما اختلفت طرق التعدين قديما بين وادي العلاقي ومناطق بني شنقول بالقرب من حدود السودان مع الحبشة إذ أن طرق التعدين التي اتبعت هناك كانت تختلف عن تلك التي عرفت في السودان الشرقي .

وقد كان البحر الأحمر من أكثر البحار سفنا في التاريخ القديم ، وعكفت السفن منذ بداية صناعتها في الإبحار على طول البحر الأحمر شمالا وجنوبا ، وكانت بطبيعة الحال فيه مرافئ وموانئ ترسو فيها السفن المجدافية في بداية عهد الملاحة ، ثم الشراعية بعد أن اخترع الشراع ، وكانت تقف في تلك المراسي لتتزود بالماء والطعام وحمل المسافرين والبضائع من مرسى لآخر . ومن المتوقع أن تكون هذه السفن قد أبحرت أحيانا محاذية للشواطئ الشرقية ، وأحيانا للشواطئ الغربية لما عرف في الإنسان من حب للبحث عن الطريق الأكثر سلامة ، أو لمعرفة المجهول ، أو سعيا وراء اللؤلؤ الذي هو من الأشياء الثمينة التي اكتشفها الملاحون القدماء – هذا الجوهر الثمين الذي ذكره القرآن الكريم ، مما يدل على قدمه وعراقته وأنه منذ العصور السحيقة محبب لنفس الإنسان . ولا أرتاب في أن الإنسان القديم سعى سعيا حثيثا للحصول على هذا اللؤلؤ ، ومن ثم فإن العرب وغير العرب امتطوا مراكبهم لترسو بهم في مرسى " دنقوناب " الواقع شمالي بورتسودان حيث يوجد الصدف ويجمع ويلتقط اللؤلؤ من جوفه . لذلك فقد كان الإبحار من شرقي شواطئ البحر الأحمر الواقعة في الجزيرة العربية سمة من سمات التاريخ ، وقد قوى هذا

الإبحار لجمع اللؤلؤ أواصر المعرفة والمصير بين السودان وأراضي المملكة العربية السعودية منذ فجر التاريخ .

إن تاريخ الملاحة بين عدوتي البحر الأحمر يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي في شواطئ البحر الأحمر بحثا عن السفن الغارقة التي تحمل الكثير من المخلفات التجارية ، والمعلومات التي ستنير السبيل للمزيد من البحث ، ولو قامت الدول العربية ، متآزرة معا ، بمثل هذا البحث والتقصي أسوة بما فعله ويفعله الغرب بحثا عن التراث المصري القديم ، والبطليموسي أو الروماني ، لعرفنا الكثير مما خفي من تاريخنا في أعماق البحر الأحمر .

ليس السفر من المملكة العربية السعودية بحرا عبر البحر الأحمر بالشئ المخيف ، وما ذلك الا لمعرفة الملاحين به وبشعابه وأنوائه ، وتوقف رياحه ، وشدة زوابعه عند ظهور الأنجم أو غيابها مثل الثريا وسهيل ومردم ، والتي تصحبها في طلوعها وغيابها أعاصير رملية تستمر أربعة أيام في كل مرة . هذه المتاعب الطبيعية عرفها ملاحو البحر الأحمر كما عرفوا مواقيتها ، ومن ثم فلم تكن بالنسبة لهم شيئا مخيفا إذ كل ما عليهم أن يفعلوه هو الانتظار حتى تنقضي هذه الأيام الأربعة ثم يبحرون في سنابيكهم . ومع أن الرحالة العرب كانوا يذكرون دائما أن الرحلة البحرية من سواكن وعيذاب إلى جدة تستغرق يوما وليلة ، الا أننا نرى فيما دون من رحلاتهم أنهم كانوا يقضون أياما ولياليَ عدة قبل أن يصلوا إلى شواطئ المملكة .

بيد أن فترة هذه الأيام التي كانت تستغرقها رحلاتهم البحرية لم تكن عائقا لهم عن الملاحة لأن شواطئ البحر الأحمر تلك كانت معروفة لدى سكان الشاطئين ولم تكن غريبة على أحد منهم . فقد ذكر استرابو (٦٦ق.م ٢٤م ) أن القوافل العربية كانت تسير بين مصر وسواحل البحر الأحمر ، وأوضح أن

هناك بعض العرب الذين كانوا يسكنون مع قبائل البجة في ذلك الإقليم ، وأنهم كانوا يسيرون بتلك التجارة . وإننا نجد في القرن الميلادي الثالث مزيدا من المعرفة حول وجود القبائل العربية في ذلك الإقليم إذ أنه في سنة ٢٧٢م اتفقت الملكة زنوبيا ، ملكة تدمر ، مع العناصر المتذمرة من الحكم الروماني في مصر في تلك السنة على إحداث متاعب للحكم الروماني هناك ، كما أنها أعدت جيشا لمهاجمة الرومان في مصر ، ثم عقدت محالفة مع البجة جنوب شرقي مصر ليقوموا بهجوم ضد الرومان ليشغلوا الرومان في أكثر من جبهة في نفس الوقت . وتجاوب البجة مع زنوبيا ، وتوغلوا في صعيد مصر ، ولكن التدمريين انهزموا على أيدي الرومان وخرجوا من الحرب ، وتمكنت الجيوش الرومانية من صد الهجوم البجاوي عليها ، ثم تغلبت على المهاجمين وتعقبتهم بقيادة القائد الروماني بروبس حتى تم طردهم من مصر سنة ٢٧٤م .

ووقع بعض رجال البجة أسرى في أيدي الرومان . ويضيف المؤرخ فوبسكوس أن بعض هؤلاء الأسرى كانوا من العرب الذين عبروا الى شرقي السودان ، وأصبحوا من رعايا ملك البجة . [١]

هذه من البينات التاريخية التي تبين لنا أن هجرات العرب إلى السودان كانت قد بدأت قبل المسيحية وقبل ظهور الإسلام ، فهي أحيانا من باب المندب إلى إرتريا فالأراضي السودانية الساحلية والداخلية ، وأحيانا عن طريق صحراء سيناء مع القوافل ، وأحيانا أخرى من مناطق الحجاز المختلفة بين جدة وينبع وما جاورهما من مرافئ قديمة لتحل في المناطق التي على غربي البحر الأحمر مثل عيذاب وسواكن والعقيق والمراسي الأخرى التي تقذفهم إليها الأنواء

---

[١] محمد صالح ضرار – تاريخ البحر الأحمر – ص ٢٣ .

والرياح كما حدث لابن بطوطة [٢] عندما خرج من جدة لعيذاب فرست به المركب في برية عيذاب . ويبدو أن القبائل العربية في الحجاز التي كانت تشرف على الطريق البري من اليمن إلى الشام قد نزح بعضها من شاطئ إلى شاطئ مع التغييرات التي تحدث في الطرق التجارية البحرية والبرية القديمة في البحر الأحمر وسواحله ، فإذا سارت القوافل عن طريق الأراضي السودانية فالمصرية ، هاجرت بعض قبائل العرب التجارية إلى غرب بحر القلزم ، وإذا تغيرت الطرق تسير عبر الأراضي الحجازية ، فهناك جماعات من القبائل العربية بإبلها وحداتها وروادها وحراسها الذين يخفرونها ويصلون بها إلى الشام .

وهكذا كان وجود بعض القبائل العربية في شرقي السودان مؤكدا بحسب ما ورد من المصادر التاريخية . غير أن هؤلاء العرب الذين نزحوا إلى عدوة البحر الأحمر الغربية انصهروا فيمن كان هناك من بجة كما حدث لغيرهم بعد الإسلام .

وسنرى فيما يقبل من حديث كيف أن بعض أبناء القبائل العربية كان كثير الدراية بالحياة في شمال شرقي السودان عارفين بأممه وطبائعهم ، بل وحتى لسانهم الذي لم يكن عربيا .

ضاق جنوب الجزيرة العربية بسكانه بعد انهيار سد مأرب وبعد الزحف الصحراوي [١] على المناطق الزراعية والرعوية الذي جعل الحياة تشوبها صعوبات جمة على الناس والأنعام مما اضطرهم إلى البحث عن بديل أفضل . فكان فيمن خرج من تلك القبائل قبيلة بلي أولى القبائل العربية التي

---

[٢] ابن بطوطة الرحلة .

[١] يوسف فضل حسن – ص ١٣

حدثنا عنها التاريخ ، وضربت بأكباد الإبل ميممة نحو الشمال حتى وصلت أراضي الحجاز ، فبقيت بعض بطونها هناك ، بينما استمرت بطون أخرى تشق طريقها نحو الشمال حتى وصلت إلى الشام .

ولم تجد جماعات قبيلة بلي التي مكثت في الحجاز ما ترغب فيه من عيش رغيد ، وكلأ كثير يكفي ما لديها من إبل وغنم ، وكأنما أصيبت بخيبة أمل لذلك ، فسعت جاهدة تبحث عن الأفضل . فنظر بعضها إلى شواطئ البحر الأحمر ، ويبدو أنها هناك علمت شيئا عما في الشاطئ الإفريقي ، ولربما ركبت هذه القبيلة العربية البحر وعبرت إلى العدوة الغربية من بحر القلزم لتهبط في أرض " البجة " ( بضم الباء ) كما كان يسميها العرب . وكانت هذه أول قبيلة عربية عرفت بالاسم تفعل ذلك ، وهناك وجدت قبيلة بلي أبناء عمومتهم من الخليط البجاوي العربي الذي أصبح أمة واحدة ، فنزلوا بالقرب من منازلهم ، وضربوا خيامهم ، وعاشوا هناك ما طاب لهم العيش . وقابلهم هؤلاء بحفاوة بالغة ، وأشركوهم معهم في مياههم ومراعيهم وأراضيهم ، وعاملوهم كأطيب ما تكون المعاملة ، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ، وعاشروهم معاشرة الجار الذي يغار على جاره ، ويحميه مما يحمي منه نفسه . ولم يفهموا لسانهم لأنهم لم يكونوا يعرفون اللغة العربية والتي ربما لم تكن باللغة العربية التي نعرفها الآن ، بل ربما كانت لغة تفرعت منها لغتنا العربية . وترك للزمن لكي يقرر أي اللغتين أجدر بالتفوق والبقاء في ذلك الإقليم ، أهي اللغة العربية ذات اللهجة التي كان يتحدث بها أولئك النفر ، أم البجاوية التي مازال يتحدث بها أبناء إقليم شرق السودان والذين يكونون الأغلبية الساحقة من السكان .

ولم تكن قبيلة بلي مسلمة آنذاك ، فقد كانت هجرتها إلى إقليم البجة قبل ظهور الإسلام بقرون ، واستمرت بلي في عبادتها لأوثانها . كما كانت قبيلة البجة تدين بدينها الوثني ولها أصنامها كما لبلي أوثانها .

وطاب البقاء لأبناء يعرب من البلويين قرب البجاة ، وكان كلاهما يرعى ابله وبقره وأغنامه . وعاشا معا في أول الأمر دون اختلاط بزواج أو مصاهرة ، لأن البلوي العربي كان يأنف من مصاهرة من ليس عربيا بمعنى أنه لا يزوج ابنته لغير العربي المساوي له حسبا ونسبا ، ولكن لا بأس من أن يتزوج العربي من أي فتاة أو امرأة أخرى . وكان البجاوي لايفرق بين عربي وبجاوي من حيث المصاهرة . وكان يقبل بهذا العربي صهرا له – هذا البلوي الذي قدم من جنوب الجزيرة موطن الهجرات العربية الكبرى ، فمن هناك خرج المناذرة والغساسنة ، ومن تلك البقاع هاجر الأوس والخزرج ، ومن تلك المناطق انطلقت اليمنية والقحطانية ، ومن هناك خرج الكثير مما هو عربي من قبائل وعشائر وبطون وأفخاذ وأسر وأفراد . وكان عرب الجنوب ذوي حضارة ومدنية ، وكانوا ذوي صناعة وكتابة منذ فجر التاريخ . وكانوا فوق هذا وذاك ذوي هجرات – هاجروا شمالا حتى الشام والعراق ، وجنوبا حتى سهول الحبش والطراز الإسلامي في إفريقيا ، وغربا إلى العدوة الغربية من البحر الأحمر . وفي كل جهة تركوا آثارهم التي تدل عليهم على قلة ما جرى من حفريات .

لقد كان البلويون يعرفون شيئا عن الزراعة والصناعة والتجارة حين نزلوا في شرق السودان ، وكانوا هم جزءا من أولئك الذين سار بعضهم إلى الشام ، بينما ساروا هم إلى شرق السودان . أما كيف عرف هؤلاء البلويون أنهم سيجدون عيشا رغدا في شرق السودان حسب مقتضيات ظروفهم

المعيشية آنذاك ، فهذا أمر يحتاج إلى وقفة على أعتاب التاريخ نسأله ونستقرئه لنعرف ما خفي علينا .

لم تكن أمة العرب بالأمة التي أغلقت على نفسها شواطئها ، وتدثرت بجبالها وصحاريها ، وقبعت في نجدها وتهامتها ، بل إنها كانت متفتحة ، وكان التفتح مصدره الجنوب العربي حيث المعينيون والسبئيون والحميريون . فقد كان هؤلاء رجال بحار وسفن ، كما كانوا رواد بلدان كثيرة . وفي سفنهم حملوا زراعتهم وصناعتهم وطافوا بها كل شبر من البحار . ومن هنا نجد في الشعر الجاهلي بعض هذه الخبرات البحرية التي عرفها العرب عامة ، وعرب الجنوب خاصة . ومن هنا كانت كلمات طرفة في علم البحار والجغرافيا تضئ شعره ، فهو يعرف شيئا عن السفينة سواء أكانت :

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي

فهو كما نرى يعرف شيئا عن السفن العدولية التي تنسب إلى عدولية التي على شواطئ البحر الأحمر الإفريقية والتي يعتقد بعض المؤرخين أنها مرسى العقيق السوداني الآن والذي أصبح خاليا من كل شئ الا القليل . ويرى بعضهم أنها في الشاطئ الإرتري ، وكلا الموقعين من الأراضي التي هاجر إليها العرب . ولئن ذكر بعض شراح معلقة طرفة بأن عدولية هي إحدى موانئ البحرين فقد أخطأوا ، وقد كان مؤرخو العرب على علم بهذا الميناء تماما لكثرة تردد المبحرين بين الشاطئ العربي والشاطئ الإفريقي ومن بينهم طرفة .

وكان طرفة كما يبدو لي من أبياته في المعلقة جواب بحار واكتسب بعض خياله الشعري من تلك التجربة ، فهو من جهة ابن البحار ، ومن ناحية أخرى ابن الصحاري الرملية . اليس هو الذي يصف هذه السفينة بأنه :

يشق عباب الماء حيزومها بها  كما قسم الترب المفاول باليد

فهو قد جمع بين الحياة في الصحراء والبحار ، ولذلك فقد استطاع أن يشبه صدر السفينة وهي تعلو الأمواج وتفلق البحر كأنها يد ذلك الذي يقسم كوم الرمل بكفه إلى قسمين .

ولماذا نذهب بعيدا فنلجأ إلى شاعر مثل طرفة لنؤكد معرفة العرب بالتجارب البحرية ، وفي القرآن الكريم آيات وآيات عن البحار ونشاط الإنسان في البحار والأمواج ، والجواري المنشآت في البحر كالأعلام ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس – كل هذه الأشياء تدلنا على أن الإنسان العربي عرف البحر معرفته بالصحراء .

لهذا فمن المعتقد أن قبائل بلي وأبناء عمومتها من قضاعة الذين خرجوا من ديارهم في جنوبي الجزيرة ، وانتشروا في أرض الجزيرة العربية مشرقين ومغربين ، ومشمئلين ومجنوبين ، إنما كانوا على علم وافر بالبر والبحر وخاصة البحر الأحمر – بحر تجارة التوابل . ويقول مؤرخو العرب بأن ( بلي ) ذهبت شمالا إلى الحجاز ونزلت في موقع يقال له اليمامة – وليس المقصود منها يمامة نجد ، بل هذه موقع بين المدينة المنورة ومكة المكرمة . ومن هناك عبروا البحر الأحمر نحو الغرب .

بيد أننا حين نصل إلى هذا المعبر نجد أنفسنا أمام بعض التساؤلات التي نقف حائرين أمامها . فنحن نريد أن نعرف من هي تلك الأمة أو القبيلة التي كانت تملك أسطول النقل البحري بين الشواطئ الشرقية والغربية . هل كانت تلك السفن رومية ، أم كانت حميرية ، أم كانت سودانية ؟ أم كانت عربية حجازية ؟ وكم كان عدد سفن ذلك الأسطول الذي عبرت فيه بلي البحر ؟ وكم كان عدد أفراد القبائل أو القبيلة التي أبحرت ، وماذا كان فيها

من مؤن وجمال وماشية وأغنام وعتاد وخيام . وماذا كان سلاحهم ، وهل حملوا طعامهم وماءهم معهم أم كانت هناك مقدمة للقبيلة من الرواد سبقتهم إلى موضع نزولهم ، لتعد لهم كل احتياجاتهم . ونحن نعرف بأن العرب كانوا يقولون بأن الرائد لا يكذب أهله ، ونعرف أيضا انهم كانوا لا يرحلون من موطن لآخر دون أن يكون في مقدمتهم روادهم يستشفون أخبار الطريق ، ويحددون موقع إناختهم واستجمامهم خاصة عندما يسافرون بقضهم وقضيضهم ، ونسائهم وأطفالهم حتى لا يهلك الضرع ولا يفنى الولد .

هل ياترى كانت هذه الرحلة البحرية قريبة الشبه برحلة كولمبوس عندما اخترق المجهول ، أم كان البحر الأحمر ماء مرتادا ؟ وماذا قالت القبائل من شعر عند فراقها للجزيرة العربية ، وهل بكى شعراؤها وهم يفارقون ديارهم ، وهل شكا محبوهم مما سينالهم من البين ، وهل افتخر بعضهم بأنهم ركبوا الأهوال ، وهل بكى من بقي منهم في الجزيرة العربية ، وهل وصلت جميع السفن إلى هناك أم ضاع بعضها في البرية السودانية ، أم غرق جزء منها في مياه البحر ؟ كل هذه أشياء يود المرء معرفتها .

إن العربي ألوف بطبعه ، محب لوطنه ولو جار عليه الزمان ، وهو شاعر بسجيته أو على الأقل إن لم يكونوا كلهم شعراء فلا أقل من أن يكون بعضهم شعراء ، والشعر ديوان العرب – كما نعلم – لأنه يصور حياتهم ، ويدون تاريخهم ، ويحلل نفسياتهم ، ويوضح أفعالهم في الحل والترحال ويظهر أخلاقهم ومثلهم . وما أكثر ما بكى العرب على أطلالهم ودارس أماكنهم ، فلا يعقل أصلا أن تكون الأفواج العربية اللماحة التي هجرت الجزيرة ، وهاجرت إلى السودان قبل الإسلام قد تركت الشعر جانبا وهجرته . إننا إن لم نعثر على هذا الشعر الذي قيل في هذه المرحلة من الهجرة العربية عبر

البحار نكون قد أضعنا الكثير من الشعر العربي والملاحم الشعرية التي قيلت في هذه الفترة . وما أحرانا بأن نبحث عما قيل سواء عندما غادر أجدادنا هذه الأراضي الطاهرة ، أو عندما هبطت أقدامهم على تلك الأراضي العزيزة .

بودي في هذه اللحظة أن أستنفر الأدباء والمؤرخين في المملكة العربية السعودية وفي السودان لكي ينقبوا عما قيل في هذه المرحلة الطريفة من تاريخ القطرين الشقيقين ، فعلى أبناء الضفتين من شيب وشباب أن يبحثوا عن هذا الكنز المفقود من شعر عربي قبل الإسلام ومن أشعار كثيرة قيلت بعد الإسلام ، لأن هجرات العرب بعد الإسلام إلى شرق السودان أولا ثم إلى وسطه وغربه كانت هجرات كبيرة كما سنرى .

لايعرف على وجه التحديد تاريخ وصول قبيلة بلي العربية إلى أرض شرق السودان . ولكن كان ذلك في أول هجرة لهم قبل الإسلام . ويقول محمد صالح ضرار مؤرخ إقليم البجة [1] نقلا عن المراجع العربية بأن هذه القبيلة هي من بني بلي بن عمرو الحافي بن قضاعة بن حمير . وكان قضاعة قد ملك بلاد الشحر وقبره هناك ، ولهم بقايا ( حتى الآن ) بالديار المصرية بصعيدها الأعلى . غير أن تلك الفئة من قبيلة بلي التي وفدت قبل الإسلام سكنت في الجزء الشمالي الشرقي ، وهي من أولى القبائل العربية التي أدخلت اللغة العربية في إفريقيا ، واستمرت لغتها فترة من الزمن لم يستطع أحد من المؤرخين أن يحددها ، لكنها بتقادم العهد ، وبكثرة الاختلاط اجتماعيا مع قبائل البجة التي حولهم ، وبالمصاهرة فيما بعد عندما تزوجوا من بنات زعماء قبائل البجة

---

[1] تاريخ السودان – البحر الأحمر – مكتبة دار الحياة بيروت . كذلك ينظر الى تاريخ قبيلة بلي في موضعه في هذا الكتاب .

، أخذت اللغة البجاوية تحتل مكان اللغة العربية حتى زالت اللغة العربية تماما عن الوجود في إقليم البجة .

لقد نزلت بلي مع قبائل البجة التي وصفها نعوم شقير [1] " بأن أمة البجة لم تنشأ في إفريقيا ، بل هاجرت إليها من آسيا عن طريق مصر والبحر الأحمر من عهد بعيد . أما ملامحهم وعاداتهم وأخلاقهم فجميعها عربية محضة ".

إذن فان هجرة قبيلة بلي إلى شرق السودان لم تكن هي الرحلة الأولى للقبائل العربية إلى هناك كما مر بنا ، بل إن بعض قبائل العرب البائدة [2] هي الأخرى قد هاجرت إلى شرق السودان بعد أن وقع لها ما وقع وفيهم عاد وثمود وقبائل الشاسو التي هاجرت من الشام . الا أنه كما يبدو لنا فان هذه القبائل قد انصهرت لتكون قبائل البجة بهيئتها التي وجدتها عليها قبيلة بلي . وما إن حطت بلي الرحال حتى بدأت تستوعب ما حولها ، وتمتص ما في بيئتها الجديدة ، وهي القبيلة التي استطاعت أن تترك اسمها في كل شئ هناك حتى اسم لغتها ، فاللغة العربية بين سكان إقليم البجة وبلسان هذه القبائل تنسب إلى البليين ويطلق عليها بلغتهم التبداوية " بلوييت " [1] . وأصبح لفظ بلوي في هذه اللغة التبداوية رمزا للزعامة والقيادة والسمو بين سكان الإقليم .

---

[1] نعوم شقير – تاريخ السودان

[2] محمد صالح ضرار – تاريخ السودان – البحر الأحمر – مكتبة الحياة بيروت ص١٤ كذلك التجاني عامر – السلالات العربية السودانية في النيل الأبيض ص٨ يقول بأن العرب نزحوا قبل ألف سنة قبل الميلاد الى السودان عن طريق البحر الأحمر واثيوبيا ، ولكنه لم يكن زحف اقامة وتوالد كما حدث عن طريق مصر انظر الحديث عن البجة في هذا السفر.

[1] محمد صالح ضرار – المصدر نفسه صفحة ٣٢ .

لم تذكر لنا العشائر البلوية التي تنتمي إلى قضاعة بالجزيرة العربية شيئا عما حدث في تاريخ قبيلتهم التي فرق البحر الأحمر بين أجزائها . وبودنا لو نسأل بلويي الجزيرة عما إذا كانوا يعرفون شيئا عن أبناء عمومتهم وأشقائهم في غربي البحر الأحمر ، وهل حدث أن رجعت بعض فئاتهم أو أفخاذهم إلى موطنهم الأول عائدين من شمال شرقي السودان ، وهل حدث أن ضاقت بهم الحياة هناك كما ضاقت بهم في الجزيرة أول مرة فعادوا أدراجهم .

لايبدو أن شيئا من ذلك قد حدث ، بل ربما كانت حالة البلويين في السودان أفضل مما كانت عليه في الجزيرة ، ولو لم يطب لهم المقام هناك لركبوا إبلهم ، وساقوا أنعامهم وحملوا أنفسهم ومتاعهم على السفن الشراعية ، وعادوا أدراجهم إلى وطنهم في الجزيرة سواء في المنطقة الغربية أو في الجنوب العربي . ولكنهم بقوا هناك في شرق السودان وطاب لهم المقام رغم ما فيه من ضيق ، وربما لم يكن ضيق الحال كما هو عليه الآن ، بل ربما كان الإقليم واسع الرزق بما يدره عليهم من مناجم الذهب من تبر ومال ، وربما كانت السفن تحمل ما لذ وطاب من منتجات وهدايا قبيلة بلي السودانية إلى قبيلة بلي التي بالحجاز آنذاك دون من أو سلوى ، فالعربي يؤمن إيمانا قاطعا بالبيت :

إن الكرام إذا ما ايسروا ذكروا  من كان يألفهم في الموطن الخشن

وما كان أخشن مواطن الأجداد آنذاك .

لم يعرف عن قبيلة بلي أنها أقامت في موطنها الثاني بشرق السودان أية أسواق أدبية على غرار تلك الأسواق التي كانت تقام في بعض أجزاء الجزيرة مثل عكاظ وبدر وغيرهما ، ولم يصل إلينا أي أثر من شعر أو نثر أو

---

١

خطابة ، ولعل بلي شغلت نفسها بأشياء أخرى لا نعرفها . ولا ندري عما إذا كانت قبيلة بلي من القبائل التي تنظم الشعر وتجيده وعما إذا كانت لغتها العربية هي نفس اللغة التي نعرفها الآن ، أم كانت لغة سامية في طور التكوين العربي كتلك التي كانت تكتب في سبأ وغيرها . بيد أن هذه القبيلة لم تندثر رغم أنها واجهت صعوبات أخرى في الحياة من جراء زحف القبائل العربية اللاحقة إلى مواطنها الجديدة في السودان بعد ظهور الإسلام . وكان عليها مواجهة ذلك الغزو الإسلامي من غرب الجزيرة العربية شرقا ، ومن مصر شمالا . ولم يكن غزو الدولة الاسلامية والقبائل العربية يجد ترحيبا من قبيلة بلي أو من قبائل البجة ، بل كانت هناك حروب ومقاومة ضد ذلك الغزو العربي الاسلامي تماما كما حدث في الجزيرة العربية عند البعث بالرسالة ، واستمرت هذه المقاومة فترة من الزمن حتى اندمج السكان الأقدمون بالسكان المحدثين ، وكونوا أمة واحدة عربية اسلامية . لقد قبل البجة الإسلام ولكنهم لم يقبلوا استخراج معدن الذهب من بلادهم ، ولذلك قاوموا الوجود العربي الذى يعمل في مناجمهم .

لنرجع مرة أخرى إلى الرحلة الأولى لقبيلة بلي ، فأنا هنا أهدف إلى توضيح أواصر القربى ووشائج الدم بين سكان ضفتي البحر الأحمر . وسيكون حديثي عن سواكن شرقا حتى أقصى مناطق السودان غربا في إقليم دارفور ، كما سيشمل الحديث الجزيرة العربية من جدة غربا إلى الخليج شرقا عبورا بنجد واليمامة . إنني أرمي إلى جمع أصول القبائل عندما بدأ التدوين ، وبعد أن ثبت من الدراسات الأثرية أن الروابط الطبيعية والإنسانية بين الجزيرة العربية ومصر وأراضي السودان إنما هي روابط أزلية .

يقول بعض مؤرخي العرب بأن أسباب رحيل قبيلة بلي من ديارها في أرض الشحر تعود إلى خلافات قبلية أثارتها العادات القبلية آنذاك . وتروي هذه المصادر بأن أحد أبناء قبيلة قضاعة [1] أحب فتاة ربعية حبا ملك عليه شغاف قلبه . فعلمت ربيعة بحبه لها ، وقد كانت القبيلتان متجاورتين . فسرى الخلاف بين القبائل التي كانت تعيش مجاورة بعضها بعضا ، فاختصمت ربيعة مع قضاعة لأن الفتى القضاعي لم يغضض طرفه ، وشعرت ربيعة بأن زمام الأمن والعفاف قد فلت ، وأن حرمة الجار قد انتهكت . ووقفت قبيلة مضر وأنمار وإياد في صف ربيعة ، وانتصرت قبائل عك لقضاعة ، ووقف الفريقان في مجابهة عنيفة ، وانتهى الصراع بين المعسكرين المتقاتلين بانتصار ربيعة وأحلافها على قبائل قضاعة وعك . واضطرت قبائل قضاعة للرحيل عن موطنها ، فذهبت أغلبية قبائل قضاعة إلى نجد ما عدا قبيلة بلي فإنها بعد أن يممت نحو اليمن ارتحلت من هناك على دروب القوافل شمالا إلى ما بين تيماء والمدينة .

ومن هنا نستخلص أن قبيلة بلى التي هاجرت إلى السودان إنما هي من أبناء عمومة القضاعيين في نجد والشام ، والذين في غير نجد والشام ، وأن صلات الرحم التي بين هؤلاء وهؤلاء قوية قريبة . ولعل التقارب الذي نراه الآن بين البلدين إنما يعود إلى صلات الدم تلا ، وأواشج الرحم السابقة ، بل وإلى العناصر الإنسانية ، والخلجات النفسية التي توارثتها النفوس جيلا بعد جيل سواء أكان ذلك في شبه الجزيرة العربية أم في السودان ومصر وأننا بالإضافة إلى ذلك سنجد في ما يقبل من حديث في هذه الأسطر مزيدا من

---

[1] محمد صالح ضرار – تاريخ البحر الأحمر ص٣١ – مكتبة الحياة – بيروت

أواصر القربى بين سكان الجزيرة العربية وبين من نزح إلى مصر والسودان من عرب واختلط بسكانه السمر البشرة هناك .

ومن غربي الحجاز رحلت بلي إلى غربي بحر القلزم للاستيطان . ولما انقضى عليها الوقت أخذت تختلط بسكان مملكة البجة من بجاة أصليين أو من عرب أغرباء – كما رأينا عبر تاريخ المنطقة – وقد سبق وأن اختلطوا بالبجة وأصبحوا جزءا منهم ، كذلك فإن زعماء قبيلة بلي لجأوا هم أيضا إلى التزاوج من بنات رؤساء مملكة البجة ربما لأسباب شخصية ، ولكن دون ريب لعقد محالفات أسرية بغية تفادي شرور أفراد القبائل البجاوية المنتشرين في كل واد وجبل . وكان هذا التزاوج سببا في تقوية الأواصر . ولما كان البجة يؤمنون بتوريث ابن البنت على عادة الأعاجم في تلك الأراضي السودانية ، فقد اكتسب البلويون كثيرا من النفوذ من جراء هذه المصاهرة . والبجاوي معروف عنه أنه يحنو على ابن البنت أو الأخت ، ويمنع عنه الشر ويذود عنه الضر ، ويقف معه عند الشدائد والقتال أقوى وقفة ممكنة . وربما من هنا جاءت عادة توريث ابن البنت أو الأخت عندهم . وانتهت هذه السياسة الإرثية إلى أن يستولى الزعماء البلويون على الملك في مملكة البجة ، ثم يسودون في آخر الأمر على كل أفراد القبيلة . ويطلق البجة عليهم لفظة " حِدْرِبيٌ " ، كما كان يسمى السكان الأصليون " الزنافج " . وكان لكل زعيم من الحدارب عدد من الزنافج لأن الحدارب كانوا وجوه الناس وساءتهم وأصبحوا هم الزعماء والساسة وقد قبلت بهم شعوب البجة ورضوا بزعامتهم . وكان الزعماء الحدربيون يتزوجون من بنات زعماء البجة وتابعيهم من الزنافج ، ولكنهم لا يسمحون لتابعيهم من الزواج ببناتهم حتى

ولو كانت البنت هجينا . وكانت لفظة بلوي تحمل كل سمات الزعامة [1] لا الرجل العربي فحسب بل إنها كانت تعني السيادة بكل معانيها على الأفراد البجاويين الذين كانوا ينقسمون إلى عشائر وبطون وأفخاذ شأنهم في ذلك شأن عرب الجزيرة . ولكنهم كانوا يختلفون عن عرب الجزيرة في أنهم ينضوون تحت ملك واحد من بين خمس ممالك للبجة

وبذلك فهم يكونون أمة موحدة وليسوا كعرب الجزيرة الذين لم تكن تربطهم دولة واحدة قبل الإسلام .

## الفصل السادس :
## تدفق بعض القبائل من شبه الجزيرة العربية
## إلى السودان عن طريق مصر

كان أول فوج من أفواج العرب المسلمين الذين دخلوا مصر لأول مرة ذلك الجيش القليل العدد الذي كان يقوده سيدنا عمرو بن العاص [1] عندما وافق سيدنا عمر بن الخطاب على اقتراحه بفتح مصر . وكان كل ما مع عمرو من جنود يتراوح عددهم ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف رجل . وقد أرسل عمرو بهذا العدد ودخل مصر في شتاء عام ١٨هـ

---

[1] محمد صالح ضرار : تاريخ السودان – البحر الأحمر ص

[1] كان عمرو بن العاص من بني سهم القرشيين ، أما أمه فكما جاء في المصادر فقد كانت عنزية ، أما أم والدة العاص فقد كانت من بلي. .



obeikandl.com